

الدرس الثالث عشر: قول الإسلام في المسيح عليه الصلاة والسلام

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد..

أحبتي في الله، نحن على موعد مع ما جاء في القرآن بأن عيسى عبد الله ورسوله، قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (23) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهَزَمِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حِينًا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا (26) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ لِلَّهِ رَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) } [مريم 16 - 37].

المعنى: واذكر أيها الرسول في هذا القرآن خبر مريم إذ تباعدت عن

أهلها، فاتخذت لها مكانًا مما يلي الشرق عنهم. فجعلت من دون أهلها سترًا يسترها عنهم وعن الناس، فأرسلنا إليها الملك جبريل، فتمثل لها في صورة إنسان تام الخلق. قالت مريم له: إني أستجير بالرحمن منك أن تتأني بسوء إن كنت ممن يتقي الله. قال لها الملك: إنما أنا رسول ربك بعثني إليك؛ لأهب لك غلامًا طاهرًا من الذنوب. قالت مريم للملك: كيف يكون لي غلام، ولم يمسنني بشر بنكاح حلال، ولم أكن زانية! قال لها الملك: هكذا الأمر كما تصفين من أنه لم يمسسك بشر، ولم تكوني بغيًا، ولكن ربك قال: الأمر علي سهل؛ وليكون هذا الغلام علامة للناس تدل على قدرة الله تعالى، ورحمة منّا به وبوالدته وبالناس، وكان وجود عيسى على هذه الحالة قضاء سابقًا مقدّرًا، مسطورًا في اللوح المحفوظ، فلا بد من نفاذه. فحملت مريم بالغلام بعد أن نفخ جبريل في جيب قميصها، فوصلت النفخة إلى رحمها، فوقع الحمل بسبب ذلك، فتباعدت به إلى مكان بعيد عن الناس. فألجأها طلق الحمل إلى جذع النخلة فقالت: يا ليتني مت قبل هذا اليوم، وكنت شيئًا لا يُعرف، ولا يُذكر، ولا يُدرى من أنا، فناداها جبريل أو عيسى: ألا تحزني، قد جعل ربك تحتك جذول ماء. وحرّكي جذع النخلة تُساقط عليك رطبًا غصًا جني من ساعته. فكلي من الرطب، واشربي من الماء وطيبني نفسًا بالمولود، فإن رأيت من الناس أحدًا فسألك عن أمرك فقول لي: إني أوجبت على نفسي الله سكوًا، فلن أكلم اليوم أحدًا من الناس. والسكوت كان تعبدًا في شرعهم، دون شريعة محمد صلى الله عليه وسلم. فأنت مريم قومها تحمل مولودها من المكان البعيد، فلما رأوها كذلك، قالوا لها: يا مريم لقد جئت أمرًا عظيمًا مفترى. يا أخت الرجل الصالح هارون ما كان أبوك رجل سوء يأتي الفواحش، وما كانت أمك امرأة سوء تأتي البغاء. فأشارت مريم إلى مولودها عيسى ليسألوه ويكلموه، فقالوا منكروين عليها: كيف نكلم من لا يزال في مهده طفلاً رضيعًا؟ قال عيسى وهو في مهده يرضع: إني عبد الله، قضى بإعطائي الكتاب، وهو الإنجيل، وجعلني نبيًا. وجعلني عظيم الخير والنفع حيثما وُجدت، وأوصاني بالمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة ما بقيت حيًا. وجعلني بارًا بوالدتي، ولم يجعلني متكبرًا ولا شقيًا، عاصيًا لربي.

والسلامة والأمان عليّ من الله يوم وُلِدْتُ، ويوم أموت، ويوم أبعث حيًّا يوم القيامة. ذلك الذي قصصنا عليك - أيها الرسول - صفته وخبره هو عيسى ابن مريم، من غير شك ولا مرية، بل هو قول الحق الذي شك فيه اليهود والنصارى. ما كان الله تعالى ولا يليق به أن يتخذ من عباده وخلقه ولدًا، تنزّه وتقدّس عن ذلك، إذا قضى أمرًا من الأمور وأراده، صغيراً أو كبيراً، لم يمتنع عليه، وإنما يقول له: "كن"، فيكون كما شاءه وأراده. وقال عيسى لقومه: وإن الله الذي أدعوكم إليه هو وحده ربي وربكم فاعبدوه وحده لا شريك له، فأنا وأنتم سواء في العبودية والخضوع له، هذا هو الطريق الذي لا اعوجاج فيه. فاختلفت الفرق من أهل الكتاب فيما بينهم في أمر عيسى عليه السلام، فمنهم غال فيه وهم النصارى، فمنهم من قال: هو الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: ثالث ثلاثة - تعالى الله عما يقولون -، ومنهم جاف عنه وهم اليهود، قالوا: ساحر، وقالوا: ابن يوسف النجار، فهلاك للذين كفروا من شهود يوم عظيم الهول يوم القيامة.

وأما الدليل على أن عيسى عليه الصلاة والسلام لم يصلب قول الله تعالى: {فَبِمَا نَقُضُوا مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155)} وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا (159)}

[النساء: 155 - 159].

المعنى: ولقد لعنًا - أي اليهود - بسبب نقضهم للعهد، وكفرهم بآيات الله الدالة على صدق رسله، وقتلهم للأنبياء ظلماً واعتداءً، وقولهم: قلوبنا عليها أغطية فلا تفقه ما تقول، بل طمس الله عليها بسبب كفرهم، فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً لا ينفعهم. وكذلك لعنناهم بسبب كفرهم وافترائهم على مريم بما نسبوه إليها من الزنى، وهي بريئة منه. وبسبب

قولهم - على سبيل التهكم والاستهزاء -: هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب (قتلناه)، وما قتلوا عيسى وما صلبوه، بل صلبوا رجلاً شبيهاً به ظناً منهم أنه عيسى. ومن ادّعى قتلَهُ من اليهود، ومن أسلمه إليهم من النصارى، كلهم واقعون في شك وحيرة، لا علم لديهم إلا اتباع الظن، وما قتلوه متيقنين بل شاكين متوهمين. بل رفع الله عيسى إليه ببدنه وروحه حياً، وطهره من الذين كفروا. وكان الله عزيزاً في ملكه، حكيمًا في تدبيره وقضائه. وإنه لا يبقى أحدٌ من أهل الكتاب بعد نزول عيسى آخر الزمان إلا آمن به قبل موته عليه السلام، ويوم القيامة يكون شهيداً بتكذيب مَنْ كذّبه، وتصديق مَنْ صدّقه.

ولقد أمر الله تعالى رسوله الكريم بأن يقول لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: تعالوا إلى كلمة عدل وحق نلتزم بها جميعاً: وهي أن نخص الله وحده بالعبادة، ولا نتخذ أي شريك معه، من وثن أو صنم أو صليب أو طاغوت أو غير ذلك، فإن أعرضوا عن هذه الدعوة الطيبة فقولوا لهم - أيها المؤمنون -: اشهدوا علينا أننا مسلمون منقادون لربنا بالعبودية والإخلاص.

وهذا مصداقاً لقول الله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 64].

ويخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزول عيسى عليه السلام آخر الزمان، فعن النّوّاس بن سَمْعَانَ ☺، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "... إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيُنزَلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَينِ إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ - أَي خَفَضَهُ - قَطْرًا، وَإِذَا رَفَعَهُ مَحْدَرٌ مِنْهُ جُحَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ - أَي يَنْسَاقُطُ مِنْهُ الْمَاءُ عَلَى هَيْئَةِ اللُّؤْلُؤِ فِي صَفَائِهِ -، فَلَا يَحِلُّ - أَي لَا يُمْكِنُ وَلَا يَقَعُ - لِكَافِرٍ يَحْدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ - أَي الدَّجَالُ - حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابٍ لُدٍّ - أَي بِلَدَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ - فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَيَسْتَأْذِنُ هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ - أَي لَا قُدْرَةَ

ولا طاقة - لأحدٍ بقتالهم فحرّز عبادي إلى الطور. وبيعتُ الله يأجوجَ ومأجوجَ وهم من كلِّ حدب ينسلون - أي من كل مكان مرتفع يسرعون -، فيمُرُّ أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمُرُّ آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء!! ويخصر نبيُّ الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبيُّ الله عيسى وأصحابه - أي إلى الله -، فيرسل الله عليهم النعف - أي دود يكون في أنوف الإبل والغنم - في رقابهم فيصبحون فرسى - أي قتلى - كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملاء زهمهم وتنهم، فيرغب نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت - أي الإبل الخراسانية - فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يكنُّ - أي لا يمنع - منه بيتٌ مدر - أي: الطين الصلب - ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالرلقة، ثم يقال للأرض أنتي ثمرك وردي بركتك فيومئذ تأكل العصابة - أي الجماعة - من الرمانة ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل - أي اللين - حتى أن اللقحة - أي القريبة العهد بالولادة - من الإبل لتكفي الفئام - أي الجماعة - من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس - أي الجماعة من الأقارب دون القبيلة -، فبيتهم هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر - أي يجامع الرجال النساء علانية - فعليهم تقوم الساعة - (1).

وَعَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ☺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ، وَأَبْنُ أُمَّتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الشَّامِيَّةِ شَاءَ" - (2).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

* * *

(1) (صحيح) أخرجه (م) 2937.

(2) (صحيح) أخرجه (م) 28.